

الهوية قراءة مفهوماتية

د. زازوي موفق

جامعة تلمسان

تمهيد

نسعي في هذه المداخلة في مستواها الأول إلى الإحاطة بمفهوم الهوية وبأهم العلاقات البنائية و المفاهيم التي تشتمل عليها كمفهوم الانا والفرد و الجماعة وما تقدمه هذه المفاهيم من دور في تحديد ملامحها.

أما في المستوى الثاني فان الهوية لا تفهم و لا يتحدد معناها الا في علاقتها بالآخر وما ينطوي عليه هذا الاخير من معاني كالاختلاف والغيرية لذلك فإننا نسعي الي ضبط هذه العلاقات من أجل تقديم فهم أوضح لمفهوم الهوية.

أولاً: الهوية بشكل عام :

يعد مفهوم الهوية من المفاهيم الخلافية بين الباحثين، لتعدد المرجعيات التي تناولته، ولكون هذا المفهوم يختلف في تشكله من مرحلة تاريخية إلى أخرى. وباقتحام المفهوم مجالات العلوم الإنسانية، فقد تشكل حوله نسق معرفي كامل كان نتيجة تعدد وتشعب المقاربات التي تناولته بالدراسة، وبذلك يدخل في أدوات تحديد الهوية، الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتاريخ

والجغرافية والأبعاد الحضارية جميعها⁽¹⁾. وهذا ما عبر عنه كلود
لفي ستروس على هامش ندوة الهوية، على أن المفهوم يقع
اليوم على أكثر من مفترق الطرق، لكثرة الدلالات التي قد
يتلبس بها⁽²⁾.

ولما كان مصطلح الهوية من المفاهيم المركزية بحيث لا
يمكن أن يؤدي معناه وبشكل جوهري وعميق، إلا داخل
مجموعة من العلاقات البنائية مع مفاهيم أخرى، ارتأيت ربطها
ببعض العلاقات التي تتمثل في بنية القرابة وبنية الاتصال أو
التضمن، وبنية التعارض أو التقابل ومن خلال هذه الشبكة
يمكن التعرّيج على بعض المفاهيم أو الدلالات التي أعطت
الحيوية والفاعلية لمفهوم الهوية.

أ- الهوية من الناحية الاشتقاقية:

إن الهوية في العربية مصدر صناعي مركب من "هو"
ضمير الغائب وهو عبارة عن رابطة ومعناه الوجود ، وسمي
بالرابطة لأنه يربط بين معنيين ولما كانت لفظة "هو" ليست
اسما ولا كلمة في اللغة العربية فإنه تعذر إيجاد مصدرا منها.

إن كلمة هوية ليست في الأصل عربية ولكن للضرورة
فقد اضطر المترجمين إلى اشتقاق هذا الاسم من حرف الرباط،
والذي وجد أساسا ليربط المحمول بالموضوع، كقولنا إن سقراط

هو حيوان أو إنسان ولذلك فقد عرف الإنسان بأنه حيوان بمعنى أن جوهره فيه جانب من الحيوانية.

ولما وجدوا هذا الحرف يقوم بهذه الوظيفة فقد اشتقوا منه هذا الاسم على ما اعتاد عليه العرب من اشتقاق اسم من اسم لأن الحرف لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون مصدر اشتقاق وبهذا أصبح هذا الاسم يدل على ما يدل عليه ذات الشيء⁽³⁾.

أما إذا رجعنا إلى اللغة الفرنسية فإن كلمة Identité مشتقة من اللاتينية identitas⁽⁴⁾ وهذه الكلمة مشتقة بدورها من الكلمة "idem" وتعني المثل أو الشيء نفسه.

ظهرت كلمة idem في الثقافة الأوروبية عام 1501م وسبقتها كلمة "هوية" التي ظهرت عام 1361م⁽⁵⁾.

هذا عن الاشتقاق اللغوي لكلمة هوية التي تعني الشيء ذاته.

ب- الهوية من الناحية الاصطلاحية:

إن مفهوم الهوية يختلف باختلاف الحقب التاريخية وباختلاف المقاربات التي تناولته. فعلى المستوى الفلسفي وفي المنطق خصوصاً، إن الهوية هي مبدأ الفكر وأساسه وتعني تطابق الشيء مع ذاته، ويعرف بمبدأ الهوية أو مبدأ الذاتية ويعبر عنه

بالصيغة أهي أ والذي يعني أن الشيء هو هو ولا يمكن أن يصبح شيئاً آخر رغم التحول والتغير الذي يطرأ عليه و هو لا يصدق على المساواة الرياضية فحسب بل يصدق على كل علاقة منطقية⁽⁶⁾. وبهذا يكو الفكر متطابقاً مع ذاته

ويبرز تاريخ الفلسفة قديماً عن وجود نوعين من الخطابات الفلسفية إحداها يقول بالتغير والآخر بالثبات.

يمثل الاتجاه الأول هيرقليطس، فقد كان يقول بأن الأشياء في تغير متصل وقد عبر عن هذا التغير في صورتين:

الأولى في جريان الماء عندما قال: "أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين، فلأن مياهها جديدة تجري من حولك"، أما الصورة الثانية ☼ أن اضطرام النار هي أسرع حركة وأدل على التغير..."⁽⁷⁾.

هذا ما ذهب إليه كلود ديبار عندما قال: "لا يوجد جوهر أبدي فالكل خاضع للتغير فهوية أي كائن أمبريقي (تجريبي) ترتبط بالفترة التي يتناول فيها وبوجهة النظر التي يتناول من خلالها"⁽⁸⁾.

أما الاتجاه الثاني يمثله برمنديس والذي يعبر عن موقف معارض ومناقض للأول.

فقد ذهب إلى أن الوجود قديم ثابت كامل... فأنكر الكثرة والتغير واعتبرهما وهما وظلماً⁽⁹⁾. وبذلك فإن ثبات الأشياء يتطلب أن تكون بعيدة عن كل تغير.

لقد أشار كلود ديبار في كتابه "أزمة الهويات Les crises des identités" أن برمنديس يظهر أنه أول من تكلم عن الهوية عندما قال: "لا وجود لجواهر أبدية فالكل خاضع للتغير، إن هوية أي كائن أمبريقي تخضع للفترة التي يتناول فيها، وبوجهة النظر التي يتناول من خلالها"⁽¹⁰⁾.

على أساس هذه الجدلية جاء التعريف الفلسفي للهوية جامعا في ذلك بين الثبات والتغير، فالهوية هي ما يبقى هو نفسه وكما هو بالرغم من اختلاف طرق إدراكه. يمكن القول أن هذا التحديد الفلسفي يتضمن لحظتين زمنيتين، لحظة الجوهر الثابت المتماثل مع ذاته ولحظة الثبات في الزمن وهو ما يعبر عنه بالديمومة في الزمن ولكن مسألة الهوية لا تنحصر فقط في التحول والتغير والثبات والاستقرار بل تشمل مسائل من مثل الوحدة والكثرة والتنوع والتعدد، والجوهر والمحتوى، والحقيقة والواقع والنسبي والمطلق وغيرها من العناصر المتصلة بموضوع الهوية⁽¹¹⁾، ويتضح المفهوم أكثر عندما نحاول البحث في بعض العلاقات التي تدخل في بنائه.

العلاقات البنائية للهوية:

1-الهوية/الأنأ:

في إطار البحث عن المفاهيم التي تشمل الهوية أو تتضمنها نجد مفهوم الأنأ إنه يلعب دورا أساسيا في تحديد

ملامح الهوية ومعانيها وأبعادها . إن الأنا بالعربية مشتق من اللاتينية ego ومن الفرنسية je .

في الاصطلاح "فهو بناء نفسي يتكون من صفتين أساسيتين هما الشعور واللاشعور، انه موضوع وذات لأبحاث الليبدو، إنه فاعل داخل مجموعة من الوظائف منها الواقع، النزوات، الأهواء، الدفاع، العلاقات والتكيف"⁽¹²⁾.

إن التعريف الاصطلاحي يجعل من الأنا عملية بناء وهذه الأخيرة لا تتم إلا عبر مراحل، وهذا البناء أساسه فاعلية هذا الأنا من خلال الأدوار التي يقوم بها كعمليات التكيف والدفاع وغير بعيد عن هذا التحديد نجد Erikson أول من تحدث عن الهوية بوضوح وجعل منها مفهوما مركزيا في تصورات النفسية.

لقد لاحظ إريكسون أن فرويد أهمل في نظريته أثر العوامل الاجتماعية فإذا كان للأنا أثرها النفسي الداخلي فإنه من المؤكد أن لها جانب آخر اجتماعي خارجي.

ومما يؤكد ذلك أن كل سلوك وإن كان في أصله تعبيراً عن اندفاعات ورغبات داخلية فإنها تنطلق بالتوازي من سياق اجتماعي⁽¹³⁾.

فالطفل الذي يبكي لا يأخذ مفهومه في السياق الاجتماعي من خلال دوافع الجوع الداخلية و إنما في الشعور

بالتخلي والمفارقة. وبناء على هذا التحديد فإن إريكسون يرى في الهوية بأنها تمثل "المجموع الكلي لخبرات الفرد وتتكون من عنصرين هما هوية الأنا وهوية الذات وترجع هوية الأنا إلى تحقيق الالتزام في بعض النواحي كالعمل والقيم الإيديولوجية وفلسفة الفرد لحياته، أما هوية الذات فترجع إلى الإدراك الشخصي للأدوار الاجتماعية"⁽¹⁴⁾.

من هنا جاء تقسيم إريكسون للهوية إلى هوية شخصية وهوية اجتماعية، فالهوية تكون شعورا بهذا الأنا وبفرديته ثم كذات من خلال علاقتها بالجماعة والدور أو المركز الاجتماعي الذي يمكن أن تأخذه ضمن هذه الجماعة.

2-الهوية: الفرد/ الجماعة:

يعتبر الفرد مفهوما من المفاهيم الأساسية والجوهرية في فهم معنى الهوية، فكلمة فرد بالفرنسية individu ومعناها ما لا يمكن تجزئته أو تقسيمه أما من ناحية التعريف النفسي والاجتماعي "فإنه كائن إنساني باعتباره عضو في جماعة ما أو في مجتمع ما"⁽¹⁵⁾ فهو وحده كذات وهذه الأخيرة لا يمكن أن تتحقق إلا كذات متممة إلى جماعة أو مجتمع ما.

ان الكلام عن الفرد (الهوية الفردية) يحيلنا الى ضرورة الكلام عن الجماعة (الهوية الاجتماعية) ولذلك فالهوية حسب

علماء الاجتماع هي تعبير عن الانتماء بكل أشكاله كالانتماء إلى جماعة أو منظمة أو طبقة اجتماعية...

ومن هنا تتحدد الهوية الاجتماعية على أنها: ❖ ليست إلا النتيجة النهائية والمؤقتة، الفردية والجماعية، الذاتية والموضوعية، البيوغرافية والبنوية⁽¹⁶⁾.

لمختلف صيرورات التنشئة الاجتماعية التي تبني الأفراد والمؤسسات هذا يعني أن الهوية تتشكل عبر مستويات متعددة من الانتماء إلى العرق والدين والقبيلة والدولة والأمة. غير أن الكلام عن الهوية الفردية يبقى مرتبطاً بفكرة الجماعة، ذلك أن الأنا الفردية لم يكن لها وجود قبل ذلك.

تبين الدراسات التي قام بها الكثير من علماء السوسيولوجيا والأنثروبولوجيا والمؤرخين أن هناك ❖ أنا اجتماعية أولية مشتركة بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى جماعة واحدة متماسكة⁽¹⁷⁾، هذا يبرز أسبقية الأنا الاجتماعي عن الأنا الفردي في الوجود ففي "إطار المجتمعات الأولية لا وجود للأنا الفردية، فالأنا هو الأنا الاجتماعي فحسب، فهو يسهم في المشاركة الجماعية وخاصة فيما يتعلق بالخرافات والطقوس والعادات، إذ لا وجود للإنسان المحدد إلا من خلال انتمائه الجمعي⁽¹⁸⁾".

إن ظاهرة الحرب أكبر مثال على تجسيد هذا الانتماء.

"ففي حالة الحرب وتحت تأثير الخطر المضاعف يتم تحشيد النزعة الفردية لصالح الأنا الجمعية، فالمشاعر والأحاسيس ترتبط بالجماعة، فالخوف هو خوف الجماعة والتضحية هي التضحية من أجل الجماعة"⁽¹⁹⁾.

ويؤكد هذا الكلام Dubar عندما يقول: "لا نستطيع أن نجد في فجر البشرية إلا أقواما وقبائل رحلا، ثم قبائل ومجموعات أثنية تسيطر فيها الـ "نحن" بصورة كاملة على هويات الـ "أنا" في أسوأ الأحوال، وفق "إلياس" لا نستطيع أن نجد فيها هويات للـ "أنا" إلا متجمدة بالكامل في هوية هؤلاء الـ "نحن" التي تعتبر شمولية"⁽²⁰⁾.

لذلك لا يمكن أن توجد للفرد هوية ، لا يمكن أن يجد له موقعا ضمنها الا من خلال ما تمليه الرغبة الجماعية، فلا وجود للأنا خارج الأنا الاجتماعية ومن هنا تتحول الهوية الجماعية الى مقياس لأنني لا أعرف أبدا من أنا إلا من خلال نظرة الآخر، وتصبح الهوية بذلك: "مجموعة المعايير التي تسمح بتحديد مكانة في المجتمع وبذلك تكون الهوية الاجتماعية هوية ممنوحة"⁽²¹⁾.

يمكن القول أنه عندما يتم تحديد الهوية الاجتماعية لفرد ما يعني ترتيبه في المجتمع وإعطائه المكانة والدور الذي يستحقه من خلال ما يتم تحديده من تصنيفات للفرد داخل الجماعة.

من هنا يتجسد التكامل بين الفردي والجماعي ذلك أن "الهوية في نهاية المطاف هي مسافة من الجماعة إلى الفرد عن طريق (التنشئة و التربية)، ومن الفرد نحو الجماعة عندما يعبر بطريقته الخاصة عن عضويته في الجماعة، وحتى عندما يعبر عن احتجاجه عن تلك العضوية"⁽²²⁾. فالهوية الفردية هي هوية اجتماعية في أصلها إنها تمثل الآخر منصهرا فينا، هذا الآخر الذي من خلاله نشئ ونبي فكرة عن هويتنا غير أن هذه الهوية الاجتماعية قد تتحول إلى هوية ثقافية عندما تستخدم للتمييز بين "نحن" و"هم" على أساس ثقافي ذلك أن الثقافة تعد واحدا من العناصر الأساسية للهوية ولهذا فإن كثيرا ما يتم ربط الهوية بالمسألة الثقافية، فالأزمة الثقافية هي في الأصل أزمة هوية بالدرجة الأولى.

ولما كانت الهوية تمثل نوعا من الانتماء، ومن بين العديد من الانتماءات التي قد يتواجد فيها الفرد، ما يصطلح عليه بالانتماء الثقافي، فإن الربط بين الهوية والثقافة تحت ما يعرف بالهوية الثقافية يعد من اختصاص علماء الأنثروبولوجيا على أن الثقافة "هي وظيفة أساسية تكمن في ضخ المعاني الثقافية وتقديم نفسها كنقطة أساسية للتماهي وكنظام للتمثل"⁽²³⁾.

من هنا تبرز العلاقة بين الهوية والثقافة في شكل علاقة تطابقية تظهر في كل الإيديولوجيات التي تتبنى الانتماء الاثني

والثقافي . إن الشيء الذي يميز أنصار القائلين بالهوية الثقافية تأكيدهم على القنوات التي تعبر منها الثقافة وهي التنشئة الاجتماعية التي تجعل من الجماعة تتميز بمجموعة من السمات الثقافية والأثنية الملازمة لها. ولهذا عدت اللغة والدين والثقافة من المرجعيات الأساسية لهذه الهوية، فهي تتحدد من خلالها بوصفها "مجموع قوائم السلوك واللغة والثقافة التي تسمح لشخص أن يتعرف على انتمائه إلى جماعة اجتماعية والتماثل معها"⁽²⁵⁾.

وقد تستعمل الهوية الثقافية بمفهومين مغايرين، يمثل الأول كل ما يربط الجماعة مع بعضها البعض من جملة السلوكات والصفات والخصوصيات التي تتقاسمها المجموعة عن المجموعات الصغرى. فالثقافة القومية تعمل على توحيدهم في هوية ثقافية واحدة وتمثيلهم جميعا بصفاتهم ينتمون إلى العائلة القومية نفسها⁽²⁶⁾.

أما المفهوم الثاني يدخل في إطار كل ما يربط الفرد بثقافته تحت ما يعرف بالتنشئة الاجتماعية.

يلخص أمين معلوف هذه الحركة الجدلية بين الهوية والثقافة عندما يقول: "إن كلامنا مؤتمن على إرثين عمودي - يأتيه من أسلافه وتقاليده شعوب وطائفته الدينية، والثاني - أفقي - يأتيه من عصره ومعاصريه، ويبدوا لي أن الإرث الثاني هو أكثرهم حسما ويكتسب المزيد من الأهمية يوما بعد يوم..."⁽²⁷⁾.

يمثل الإرث العمودي الهوية أما الأفقي يعزى إلى الثقافة، وكأن الهوية ذلك الهيكل الفارغ الذي يملأ بالثقافة والتي من خلالها

تجسد الانتماء إلى هذا الهيكل. وفي مستوى آخر من مستويات الهوية خاصة عندما ترتبط بالسياسة تتحول الهوية إلى مفهوم إيديولوجي وعلى هذا الأساس تصبح حسب مهنا حداد تعبيرا عن "الإشارة الحسية التي يقدم بها الإنسان ذاته للآخرين، من ذات الهوية أو من هوية أخرى لتعريف ذاته بهم أو لتمييز نفسه عنهم ليس من حيث الانتماء، بل أيضا من حيث الاشتراك معهم أو الاختلاف عنهم من حيث المصالح المختلفة"⁽²⁸⁾.

هكذا تتحول الهوية إلى مطلب عندما تسييس لتصبح أداة أو وسيلة في أيدي أولئك الذين "يشتغلون على حقوق الأقليات فيميلون غالبا إلى أن يسلموا بوجود الأغلبية والأقلية كمعطى، ويفترضون أن الهوية الثقافية (الجماعات الاثنية العرقية) ينبغي أن تصبح لا محالة أقليات سياسية"⁽²⁹⁾.

3- الهوية/ الآخر:

إذا كانت الهوية بصفة عامة هي التعبير في بعض جوانبها عن الاشتراك مع الآخر في العديد من القيم، فإن الهوية الثقافية تعبر عن الخصوصية والاختلاف عن الآخر.

فالهوية تتحدد بواسطة الذات لكنها في حقيقة الأمر هي نتاج التفاعل مع الآخر. إن نظرة الآخر إلينا قد تؤثر في كيفية تحديد هويتنا ومن هنا نتساءل، إذا كان الناس يحتاجون في تحديد هويتهم إلى الآخرين، فهل يمكن أن يكون هذا الآخر عدوا؟

إن الإجابة عن هذا الأشكال يمكن تحديدها في نقطتين:

أ/ تمثل الأولى: الأنثروبولوجيا والآخر

يتأسس المشروع الأنثروبولوجي الغربي على دراسة الآخر المختلف فقي أفقي يعرّى إلى الثقافة، وكأن الهوية ذلك الهيكل الفارغ الذي يملأ بالثقافة والتي من خلالها نجسد الانتماء إلى هذا الهيكل، وفي مستوى متان

في ثقافته بأدوات معرفية غريبة. إن مشروعاً كهذا، إذا ما وضع على محك النقد العلمي، وطبقاً للمقولة العلمية المعروفة "إن طبيعة الموضوع تفرض المنهجية المحددة ستؤدي حتماً إلى نتائج وخيمة يغلب عليها الطابع الذاتي، وبالتالي فإن الهدف المرسوم واضح، يكمن في سحق وإذابة الفوارق والخصوصيات التي تميز هذه الشعوب، هذا يعني أنها تؤدي إلى جعل الآخر يتماهى مع الذات"⁽³⁰⁾.

ب/ الهوية والاختلاف:

إن الهوية لا يمكن أن تؤدي معناها الحقيقي على أكمل وجه وبشكل جوهري وعميق إلا داخل مجموعة من العلاقات البنائية مع مفاهيم أخرى، ومن بين هذه العلاقات بينة التعارض أو التقابل، ومن المفاهيم التي تقابل الهوية الغيرية والاختلاف.

إن مفهوم الغيرية "Altérité" بالفرنسية مشتقة من اللاتينية "Alter" ومنها الآخر ففي الاصطلاح: هي خاصية ما هو غير، أي ما يقابل الأنا، أما من الناحية الفلسفية فإنه يعرف على أنه تعبير عن التنوع والاختلاف وعن كل ما هو غريب عن الذات أو الأنا، وكل ما هو منفصل عنها⁽³¹⁾.

فالهوية أو الذات لا تتشكل إلا عندما يتم إدراكها للآخر المختلف وفي صيرورة البحث عن ما يقابل الهوية يواجهنا مفهوم الاختلاف والذي يعني بالفرنسية "Différence" وهي كلمة مشتقة من اللاتينية différencié ومعناها الاختلاف.

أما من الناحية الفلسفية فيقصد به الاختلاف الموجود بين شيئين لهما نفس العناصر أو عناصرها متشابهة⁽³²⁾.

انطلاقاً من هذا التحديد، فإن الاختلاف يكون في كل شيء فمثلاً يكون بين الرجل والمرأة يكون بين الطبيعة والثقافة، ويكون بين الثقافات بعضها البعض، وقد يكون داخل الثقافة الوطنية الواحدة وما تتضمنه من ثقافات محلية⁽³³⁾، ففي الواقع لا وجود لاختلاف إلا بوجود تشابهات قد تحيلنا إلى وجود هوية أصل تمثل حد أدنى من الاشتراك فالاختلاف في جوهره هو حصيلة التشابه، يؤكد هذا الرأي الحديث الشريف: "اختلاف أمتي رحمة"، فمن الوحدة تحدث التمايزات، لأن الهوية هي حصيلة اختلاف "فالاختلاف هي أسس الهوية كهوية متجددة ومتغيرة باستمرار"⁽³⁴⁾.

قد يحيلنا تفكيك كلمة "هوية" إلى لفظة "الهوة" والتي تعني في اللغة العربية الفجوة والفراغ والابتعاد بين شيئين أو ذاتين أو شعبين، ولما كان الاختلاف من المفاهيم التي تدخل في بنية التقابل مع الهوية ، فإن الرجوع إلى كلمة "Différance" الفرنسية والتي هي في الأصل نقلا حرفيا للكلمة الإغريقية "ديافورا" فعند تقسيمها نحصل على كلمة "ديا" و"فورا"، إن هذه الكلمة الأخيرة "فورا" آتية من الفعل "FERI" والذي يعني حمل و نقل، وبالتالي تصبح دلالة النقل، نقلا للاختلاف ، نقل "ديا" السابقة في طبيعتين لا تتميزان في البداية، مبعدا إحداهما عن الأخرى، إلا أن هذا الابتعاد ليس انفصاما في جوهره، إنه على العكس من ذلك يقرب بين الطرفين الذي يبعد بينهما⁽³⁵⁾. وعلى هذا الأساس يصبح الاختلاف مصدرا لهويتنا كما هو مصدرا لهوية الآخر ويتحول الابتعاد إلى تقارب بيننا وبين الآخر الذي من خلاله نقيم ذواتنا ونحكم عليها مثلما نحكم على الآخر.

حسب هنتعتون أن التجربة التاريخية والتحليل السوسيولوجي يبين أن غياب العنصر الخارجي "الآخر" يضعف الوحدة ويولد الانقسامات في المجتمع، وبذلك فإن تحديد الهوية قد يجعل الفرد محتاجا في ذلك إلى الآخر، حتى ولو كان هذا الآخر بعيدا، فالمهم أنه يشكل حاجزا نفسيا بالنسبة

إلينا، حتى نتمكن من مقارنة أنفسنا، فالمقارنة تخلق المنافسة والحذر... وما دمنا "نحتفظ بجماعة العدو على الأقل على مسافة نفسية محددة، فإنها تمنحنا عوناً وطمأنينة، وتحفز لحمتنا وتجعل المقارنات مع أنفسنا مرضية"⁽³⁶⁾.

هكذا يتحول التنافس إلى عداوة ويصبح العدو ذلك الخصم الذي نحذره ونحتاط منه، فيكون العنصر الأخطر الذي يشكل هويتنا ويجعلها قادرة على الصمود أمام الهويات الفرعية الأخرى. لكن رغم ذلك فإن الآخر مهما كانت صورته ومهما تقدم للوعي بالذات "فالآخر بوصفه اختلافاً دينياً أو ثقافياً، يشكل أفقاً للذات، وأحياناً جزءاً من النظرة إلى الذات، سواء تقدم باعتباره شريكاً مسالماً أو في هيئة كيان غاز، أو في صفة محتل متغطرس، أو مفاوض مهادن، أو تقدم إلى مساحة الوعي كاختلاف جسدي أو ثقافي"⁽³⁷⁾.

إن غياب الآخر الذي يهدد الهوية الوطنية، حتى ولو كان على مستوى الوعي، يعد واحداً من أهم العناصر التي يفتقر إليها هذا الوضع، وتواجهه يعزز اللحمة الوطنية ويجعلها قادرة على الصمود والتحدي أمام الهويات الأخرى، إن تواجد الاستعمار إبان الحركة الوطنية اضطرها إلى الوحدة لأجل إفتكاك الاستقلال.

إلا أن للاستعمار تبعاته وآثاره التي تبقى وخاصة تلك المرتبطة بالحدثة، "فالوطنية بمقدار ما تشير إلى هوية الأنا المحلية الخاصة بمقدار ما تنطوي على مفهوم جديد ليس هو نتاج موروث الأنا، بل هو نتاج المفاهيم الجديدة للآخر (الغرب) الذي أيقظ الوعي بالهوية الوطنية، في الوقت الذي كان يطمح إلى انتهاكها وتدميرها"⁽³⁸⁾.

إن الآخر (العدو) قد يدفعنا من جهة إلى تعزيز اللمحة وبعث التماسك بيننا ومن جهة أخرى فإنه يسعى إلى سحق كرامتنا متى سنحت له الفرصة إلى ذلك.

إن الشعوب طورت حسها بالهوية الوطنية من خلال نضالها لتمييز أنفسها عن شعوب أخرى ذات لغة مختلفة وديانة مختلفة وتاريخ مختلف ومكان مختلف⁽³⁹⁾.

فالحرب من هذا المنظور هي التي تصنع الهوية، فتورة التحرير الوطني على الاستعمار الفرنسي هي التي خلقت الهوية الوطنية الجزائرية على أساس أن الشعب الثائر عرف نفسه على أنه شعب عربي مسلم يحارب ضد عدو أعجمي كافر.

غير أن الهوية كما أشار إلى ذلك الكثير من المفكرين تتبدل وتتغير عبر الزمن، لأن الهوية ليست معطى أولي أو

فطرة، بل هي مفهوم متحرك وبناء مستمر مفتوح عبر مراحل الدولة أو الأمة أو أي شعب من الشعوب

إن الهوية عندما تقحم في عالم السياسة تأخذ طابع التغير والتبدل عبر فترات تاريخ هذا المجتمع. فتاريخ الجزائر المعاصرة يبرز لنا التحولات التي عرفتتها الهوية الوطنية، فمرحلة الثورة تختلف عن مرحلة ما بعد الاستقلال كما تختلف عن مرحلة التعددية الحزبية.

من هنا يمكن القول أن الهوية قد تتحول إلى أداة في أيدي فاعلين سياسيين تخدم أهدافا معينة وتصبح الإيديولوجيا العامل المسير للفعل السياسي، وما يبقى من الهوية إلا استراتيجيات هوياتية مسيرة بشكل عقلاني من قبل هؤلاء الفاعلين السياسيين.

ففي المرحلة الاستعمارية كانت الهوية مفهوما يمثل حربا ضد الآخر (المستعمر، المغتصب...) لكن بظهور الدولة الوطنية أصبحت الهوية طرفا من الدولة، مما أفرز توحيد الهويات في هوية واحدة أو ما يعرف بالهوية المركزية في مقابل تضائل الهويات الأثنية، لأن أغلب الأمم الحديثة تتألف من ثقافات متباينة تم توحيدها عبر صيرورة مديدة من الفتح العنيف... وكل فتح يؤدي إلى إخضاع الشعوب المهزومة في

ثقافتها و عاداتها و لغاتها وتقاليدها، ويسعى إلى المزيد من الهيمنة الثقافية الموحدة⁽⁴⁰⁾.

لكن مع التحولات التي عرفها العالم نحو ما يعرف بنظام الأحادية وبالرغم من "بروز هذه الهوية المركزية تحت ما يعرف بنموذج الدولة الأمة ... بين انفجار هذه الهوية المركزية إلى هويات جزئية غالبا ما تنتمي إلى ثقافات فرعية احتجاجية كالعودة إلى العرقية أو الأثنية"⁽⁴¹⁾.

ولهذا فإنه كثيرا من الأحيان عندما يتم الانتهاء من المسائل الكبرى كاستقلال الدول عن مستعمراتها، تبرز المشاكل الصغرى داخليا والتي تنجر عنها المطالب الاحتجاجية، علما أن "صراع الهويات الكبرى قد تحضي داخلها صراع الهويات الصغيرة التي تبرز حالما تختفي أو تنتهي الصراعات الكبرى، وهي صراعات تبرز إذا لم يتوصل المجتمع إلى آلية عادلة ومتفق عليها في توزيع المنافع"⁽⁴²⁾.

خاتمة:

لقد حاولت في هذا الجزء مقارنة الهوية من خلال مجموعة العلاقات البنائية التي ترتبط بينيتها كبنية القرابة أو بنية الاتصال والتضمن أو بنية التعارض لفهم أسس ومبادئ وغايات الهوية.

فالهوية فردية نفسية وجماعية وهي أيضا اجتماعية وثقافية، وتصبح سياسية عندما ترتبط بالأيديولوجيا وتتحول إلى مفهوم أيديولوجي يرتبط بالمكونات الثقافية لوجود الفرد والجماعة.

فالهوية بشكل عام تخص الناس من خلال النضرة التي يشكلونها عن أنفسهم وعما يعتقدونه أنه مهم وأولى في حياتهم. وانطلاقاً من هذه الأولويات تتشكل الانتماءات والصراعات. ولما كانت الهوية شعور باستمرارية الوعي وبامتلاكه، فإن الأمر لا يتحقق إلا بوجود الآخر الذي من خلاله تتشكل الهوية.

يمكن لنا القول أن دراسة الهوية تتم من خلال النظر إليها عبر ثلاثة مستويات :

- فعلى المستوى الفردي يتم التركيز على شعور الفرد بالانتماء إلى جماعة وبما تمده هذه الأخيرة من قيم ومشاعر واتجاهات.

- أما على المستوى الثاني: تتمثل في التعبير السياسي الجمعي عن هذه الهوية من خال الانتماء إلى التنظيمات كالانتماء إلى الأحزاب السياسية مثلاً .

وأخيراً إن تصور الهوية كاختلاف وتعدد ثقافي يشكل فرصة للتعايش السلمي ومبادئ حقوق الإنسان كقيم المساواة والتسامح باعتبارها قيم كونية تستوعب الخصوصيات والتميزات الإيجابية البناءة.

الهوامش

- 1-عبد الكريم غلاب، أزمة المفاهيم وانحراف التفكير سلسلة الثقافة القومية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1981، بيروت، ص.36
- 2- الزواوي بغورة، الخطاب الفكري في الجزائر بين النقد والتأسيس، دار القصة للنشر، 2003، ص. 122
- 3- د. جبرار جهامي، موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 1998، ص.944
- 4- Jacqueline Russ, Clotilel, Leguil, Dictionnaire de philosophie, Bordas, Paris 2004, P188.
- 5 -Albert Douzat et autres, Dictionnaire étymologique Larousse, Paris 1964, P381.
- 6- جميل صليبا، المرجع السابق، ص 235 .
- 7-يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة المصرية، ط5، القاهرة 1966، ص17.
- 8 - C. Dubar La crise des identités, l'interprétation d'une mutation, presses universitaires de France (PUF), Paris 2000, P02.
- 9-يوسف كرم، المرجع السابق، ص. 29
- 0- C. Dubar La crise des identités op cit P3.1
- 11- الزواوي بغورة، المرجع نفسه، ص. 122
- 2- Michel Blay, Grand dictionnaire de philosophie Larousse CNRS, 1 édition 2005, P680.
- 1 Alex Mucchielli, l'identité, puf, 4= éditions , Paris 1986 , P87. 3-
- 4- Alex Mucchielli, Ibid, P 87.1
- 5- L.M. Morfaux, Vocabulaire de la philosophie et des sciences humaines, Armand colin, Paris 1980, P167.
- 6- C.Dubar, op. cit, P111.1
- 7- Micchilli, op.cit, P84.1
- 8- Micchilli, op.cit, P85.1
- 1069- Micchilli, op.cit, P1
- 0- C.Dubar, La crise des identités, P18.2
- 8cit, P8.1- Micchilli, op2

- 23-ستيوارت هول، حول الهوية الثقافية، ترجمة بول طبر، في مجلة إضافات ، المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد الثاني ربيع 2008، ص 137.
- 24- جان بيار مارتري، عولمة الثقافة ، ترجمة عبد الجليل الأزدي، دار القصة 2002، ص 14.
- 25- ستيوارت هول، المرجع السابق، ص 157.
- 26- أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة نهلة بيوض، دار الفارابي، ط 1 2004، بيروت، لبنان، ص 146.
- 28- مهنا حداد، الهوية العربية بين مؤسسات الدولة القطرية والمجتمع القبلي، الذات بينت تدمير الأنا والعقدة من الآخر، في مجلة نقد للدراسات والنقد الاجتماعي، عدد 10، 1116، بن عكنون، الجزائر، ص 52.
- 29- عزيز العظمة وآخرون، مفاهيم عالمية / الهوية، من أجل حوارين الثقافات ترجمة عبد القادر قنيني، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2005، الدار البيضاء، المغرب، ص 140.
- 30- الزواوي بغورة، لمرجع السابق، ص 123.
- 31- Jacqueline Russ, Clotild Badal leguil, Op. cit, P36.
- 32- L. M. Morfaux, Op3 cit, P.64.
- 33- الخمار العلمي، الهوية والسلطة، ...، ص 10.
- 34- الزواوي بغورة، المرجع السابق، ص 123.
- 35- عبد السلام بن عبد العالي، أسس الفكر الفلسفي المعاصر، دار توبقال للنشر، ط 1، الدار البيضاء، ص 96.
- 36- صامويل هانتغتون، أمريكا الأنا والآخر، من نحن؟ الجدل الكبير في أمريكا ترجمة عثمان الجبالي المثلوثي، مراجعة ، مراجعة وتقديم يوسف محمد الصواني، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأبيض، دار الكتاب الوطنية، ط 1، 2006، ينغازي، ليبيا، ص 47.
- 37- محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2000، الدار البيضاء، ص 51.
- 38- صامويل هنتغتون، المرجع السابق، ص 52.
- 39- المرجع نفسه، ص 52.
- 40- ستيوارت هل، المقال نفسه، ص 158.
- 41- د.محمد العربي ولد خليفة، ... المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2003، الجزائر، ص 91.
- 42- باقر سليمان النجار، صراع الهوية والمواطنة في الخليج العربي ، في مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية (يونيو) 6/ 2008، ص 38.